معالم الإعجاز التوجيهي في سورة الأنفال

إعداد

محمد بن عبد العزيز بن محمد الصعب

الباحث في مرحلة الدكتوراه - تخصص التفسير وعلوم القرآن

جامعة أم القرى بمكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين

للعام الهجري ١٤٣٣

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا رب غيره ، ولا معبود بحق سواه . وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ، وصفوته من خلقه وخليله، صلوات ربي وسلامه عليه ، وعلى آله ، وصحبه ، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين. **أما بعد** :

فإن لسورة الأنفال أهمية كبرى في عملية البناء التربوي للشخصية المسلمة، العاملة لدين الله تعالى ، المجاهدة في سبيل نصرته . ولقد كان رسول الله ﷺ يقرؤها في سورة المغرب [1] ، وكان من دأب المسلمين عبر العصور أن تقرأ على الأجناد قبل بدء المعارك [2] .

هذه السورة التي قررت قانون الحرب في الإسلام ، ورسمت معالم طريق النصر والتمكين ، وغاصت توجيهات آياتها في أعماق النفوس ، وولجت إلى مكنونات القلوب . قدّمت التوجيه القرآني الفائق ، ومارست التربية المؤثرة . قررت الأصول والقواعد والسنن ، وهيأت الأرواح لطريق البذل والفداء في سبيل الله. نسأله تعالى أن ينفعنا بكتابه الكريم ، وأن يسددنا في بيان المقصود ، والله المستعان.

الباحث

١٤٣٣/٣/٦هـ

---

(١) كما عند الطبراني في معجمه الكبير حديث رقم (٣٨٩٢ - ٤٨٢٤)

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٤٠) : " ورجاله رجال الصحيح " .

(٢) انظر بعض الشواهد التاريخية لذلك في مقدمة الكتاب القيّم : تفسير سورة الأنفال ، للدكتور محمد عبدالقادر أبوفارس ، ص ٧ .

التمهيد

أولاً : تعريف الإعجاز لغة واصطلاحاً

الإعجاز في اللغة :

من عجز الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز ، أي : ضعيف .ويقال : أعجزني فلان ، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه . فمعنى الإعجاز : الفوت ، والسبق . فالإعجاز إثبات العجز ، وهو نقيض القدرة [1] .

وفي الاصطلاح :

ذكر الباحثون والعلماء معاني كثيرة ، أحسب أن من أفضلها ما قاله الشيخ مناع القطان بأنه : إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة – وهي القرآن – وعجز الأجيال بعدهم [2]. حيث يشمل هذا التعريف صور الإعجاز المتنوعة ، بينهما يتقصر تعريف الكثيرين على وجه الإعجاز اللغوي فقط .

ثانياً : نبذه موجزة عن وجوه الإعجاز القرآني

١- الإعجاز اللغوي .

فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه ، وفي بيانه ونظمه ، والله تعالى قد تحدى العرب البلغاء من أن يأتو بسورة واحدة مثله فما استطاعوا .

---

(١) مباحث في علوم القرآن .لمناع القطان ص : ٢٥٨. ومقدمة كتاب : إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الاسلام ، لمحمد العواجي ، ص ٩٥ . ورونق البيان في إعجاز القرآن ، لصابر أبو سليمان ، ص ١٤ .

(٢) مباحث في علوم القرآن .لمناع القطان ص : ٢٥٨.

٢- **الإعجاز التشريعي .**

فهو معجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه [١].

٣- **الإعجاز العلمي .**

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة .

وإعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد وتتبدل ، وإنما في حثه على التفكير ، فهو يحث المسلمين على التفكير ، ويفتح لهم أبواب المعرفة ، ويدعوهم إلى ولوجها ، والتقدم فيها ، وقبول كل جديد راسخ من العلوم [٢] .

٤- الإعجاز التوجيهي :

والذي يمكن أن يسمّى بالإعجاز التربوي ، وهو بلا شك من مجالات الإعجاز الرئيسة ، فالقرآن إنما نزل لتزكية النفوس وهداية الناس وتوجيههم لما هو أقوم لهم .

فهذا التوجيه – في شكله ومضمونه – أحسب أنه من أجلى صور الإعجاز القرآني ، إذ تأثيره على القلوب والنفوس لا يضاهى أبداً .

يقول الدكتور أحمد البرزة : " وهذه الغاية العظمى للقرآن تجعل حقائقه ومعانيه وأهدافه ومثله كونية إنسانية شاملة " ، ثم يقول : " فأي دراسة في الإعجاز تغفل جانب الحقائق والمعاني إنما تغضي عن سرّه وروحه وقاعدته"[٣].

٥- **الإعجاز الشمولي .**

---

(١) مباحث في علوم القرآن .لمناع القطان ص : ٢٦٣.

(٢) مباحث في علوم القرآن .لمناع القطان ص : ٢٧٠.

(٣) كتاب في إعجاز القرآن ، للدكتور أحمد البرزة ، ص ١١ .

فقد جمع القرآن علم الكتب السابقة عليه ، فكان شاملاً لكل ما تحتاجه الأمة إلى قيام الساعة حتى صار في شموليته معجزاً إذ لم يسبقه بها كتاب آخر قبله . ومن ذلك أنه اشتمل على تفصيل كل شيء ، فمنهجه شامل لكل القضايا الحياتية ، محيط بكافة ما يحتاجه الإنسان ظاهراً وباطناً منفرداً ومجتمعاً .

قال شيخ الإسلام : " وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً " [1]. وقال أيضاً رحمه الله : " بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، ومن جهة النظم ، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى ، ومن جهة معانيه التي أمر بها ، ومعانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك ، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل ، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ، ومن جهة ما بين فيه الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية ، التي هي الأمثال المضروبة " [2] .

(١) إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ، للعواجي ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

الفصل الأول

معالم الإعجاز في تأسيس الكليات والأصول وفي تقرير السنن

أولاً : ترسيخ الكليات والأصول الشرعية أولاً قبل الفروع

- **توطئة :**

القرآن الكريم كتاب هداية وتربية ، ولذا فلقد اعتنى القرآن الكريم أشد العناية بتقرير الأصول وترسيخها في النفوس ، لينبني عليها من بعد ذلك التطبيق في كل حادثة أو حالة تتأسس على هذا الأصل ، حتى ولو كان المنطلق للخطاب القرآني هو حدث تفصيلي جزئي ، فإننا نجد القرآن العظيم يرجع بالمؤمنين إلى الأصل ليقرره أو يؤكده ، ثم يشير - ولو بإشارة عابرة - إلى الحدث الجزئي الذي يرتبط به سبب النزول ، والنتيجة هو أن هؤلاء المؤمنين تتأسس لديهم القواعد والأصول والمفاهيم والكليات القرآنية ، والتي سوف تجعلهم بعد ذلك يعملون وفقها في كل قضية أو حدث يمر بهم في حياتهم .

إن الكلّي من الشيء هو المعنى الذي ينطبق على مجموعة أفراده ، بمعنى أنه لا يتناول جزئية ، وإنما يتناول أصل المعنى الذي يصلح للتطبيق في تفاصيل كثيرة وجزئيات متعددة . وإن القرآن العظيم جاء ليعتني بتقرير كليات الدين وأصوله ، أكثر من رسم التفاصيل العلمية والتطبيقات الجزئية ، بينما السنّة — وعلى رغم تقريرها لأصول وكليات — قد كثر فيها إيراد الأحكام والمعاني التفصيلية [1] .

وفي هذا الفصل نبيّن كيف هو الإعجاز التوجيهي في هذه السورة ، بالعناية أولا بتقرير الأصول والكليات ، ثم بناء الفروع عليها من بعد ذلك . متناولين تطبيقات ذلك في السورة من خلال المحاور التالية :

---

(١) انظر : مقدمة الرسالة الجامعية المطبوعة : الكليات الشرعية في القرآن الكريم ، للدكتور الحسن حريفي ١٧/١ .

- **العناية بتحقيق الربانية في النفوس**

إن من إعجاز التوجيه القرآني هو التركيز في البدء على بناء وترسيخ مقومات هذه الربانية ، حتى تتهيأ النفوس من بعد ذلك للتلقي والانقياد ، وللبذل والعطاء في سبيل ما يرضي الله تعالى .

ولا شك بأن كل جهد يعمل على تربية النفوس وإصلاحها لا يتأسس على بناء الربانية في النفوس ، سيبقى جهداً قاصراً ضعيفاً ، وربما ينتهي إلى الفشل .

حينما نتأمل فيما تتناوله الآيات في مطلع هذه السورة الكريم ، هاهم الصحابة الكرام يخرجون مع النبي ﷺ إلى بدر وهم بغير عدة ولا عتاد ، والأنصار حينما جاء القتال كانوا يصنعون شيئاً لم تشمله بيعتهم للنبي ﷺ ، إذ هم اليوم يقاتلون خارج المدينة ، أما المهاجرون فلقد حازوا على أموال هي في الأصل أموالهم التي سلبتها منهم قريش بعد هجرتهم ، وقد حفزهم النبي ﷺ لنيل الغنائم ، ثم بعد كل هذا حينما صارت الغنيمة في أيديهم ، يأتيهم الأمر الرباني بتسليمها كلها للرسول ﷺ ، مقرراً بأنها لله والرسول، لا شأن لكم كيف يقسمها الله تعالى بين عباده، وإنما يجب عليكم السمع والطاعة على كل حال .

قال ابن جزي–رحمه الله–: " فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين " [1] ، وعن سعد بن أبي وقاص قال: اغتنم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غنيمة عظيمة، فإذا فيها سيف، فأخذته فأتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: نفلني هذا السيف، فأنا من قد علمت حاله. قال:" رده من حيث أخذته" فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض «١» لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه. قال: فشد لي صوته (رده من حيث أخذته) فانطلقت حتى أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي فرجعت إليه فقلت: أعطنيه، قال: فشد لي صوته" رده من حيث أخذته" فأنزل الله" يسألونك عن الأنفال". [2]

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٣٢٠).

(٢)تفسير القرطبي (٧/ ٣٦١).

وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ، وإنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه وللرسول من حيث هو مبين بها أحكام الله والصادع بها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل خلال ذلك، ولا شك في أن الغنائم وغيرها والدنيا بأسرها هي لله وللرسول. [1]

لقد كان أمراً ربانياً حاسماً ، يهدف قبل كل شيء إلى تربية هذه النفوس لتكون نفوساً ربانية لا تُقدِّم على طاعة الله ورسوله شيئاً ، " لقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً . نزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله ﷺ ، حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقا لهم يتنازعون عليه ، إنما أصبح فضلا من الله عليهم ، يقسمه رسول الله ﷺ بينهم كما علمه ربه " [2] .

- **ربط القلوب بالله وتحقيق منزلة التوكل عليه**

لا ريب بأن من أعظم ما يتعجب المرء منه في كتاب الله العظيم ، هو قدرته الفائقة على إحياء القلوب ، وربطها بخالقها — سبحانه - ، وهذا في مراحل تزكية النفس مرحلة أولى ومنطلق أساسي لا يمكن تجاوزه ، قال ﷺ : " ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب "[3] .

وفي هذه السورة التي تخاطب الثلة المؤمنة ، وتعدّها لمهمة القيام بأمر هذا الدين وتبليغه للعالمين ، كانت تولي أمر القلوب عناية جلية تلفت الانتباه ، تربطها بالله تعالى في كل أحوالها.

إنه بالقلب المتصل بالله ، المتوكل عليه في سائر أمره ، يمكن للمرء أن يكون على المنزلة التي يتطلبها طريق الدعوة ونصرة الدين ، وإلا فللنفس رغبات وحظوظ ، وللقلب أهواء وأدواء ، والدنيا بزخرفها وفتنتها

---

(١)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٩٧).

(٢) في ظلال القرآن ، لسيد قطب ١٤٧٣/٣ .

(٣) رواه البخاري برقم (٥٢) ، ومسلم برقم (١٥٩٩) .

يتطلع لها الإنسان ويطمع في المزيد منها . " إن قلباً لا يتعلق بالله ، يخشى غضبه ويتلمس رضاه ، لا يملك أن يتخلص من ثقلة الأعراض ، ولا يملك أن يرف شاعراً بالانطلاق!" [1] .

لقد ورد لفظ الجلالة في هذه السورة تسعاً وثمانين مرة ، فضلاً عن بقية أسماء الله الحسنى ، ليجسد واحداً من معالم هذا الربط الوثيق بين قلب المتلقي للآيات ، وبين الله تعالى خالقه ومولاه ، بإعجاز رباني في المقصد وفي الطريقة على حد سواء . ولنتأمل في جملة من المواطن في السورة الكريمة ، لا تزال تتجه إلى القلب ليتصل بالله تعالى ويتوثق اتصاله معه ، وليستشعر هذا القلب بكلّه كيف ينبغي له أن يكون مع الله ، وكيف أن الله تعالى معه في كل موقف وحدث ، بليل أو نهار، عند حلول الشدائد ، وفي ساعات الانتصار ، فينخلع من حوله وإرادته ، إلى قدرة الله ومشيئته ، وقدره الذي له فيه الحكمة البالغة ، إنه عليم حكيم .

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [2] .

فهذه صفة الإيمان الحق الذي يرتضيه الله لعباده ، وهذا هو حال المؤمن الذي رسخ في إيمانه ، قلبه متعلق بربه ، يغشاه الوجل والرهبة كلما لامسه ذكر ربه ، ونفسه متهيأة لتلقي كل توجيه قرآني ، تتأثر به وتتفاعل سريعاً معه ، فهي كالأرض الخصبة الطيبة ، أما حاله الدائمة ، والتي صارت سمة له تصطبغ بها حياته كلها ، فهو أنه متوكل على ربه . قال الحافظ ابن كثير : " أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ما لم يشأ لم يكن " [3] .

---

(١) الظلال ٣/١٤٧٤ .

(٢) سورة الأنفال آية (٢ – ٤) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٢٧٤ .

لقد جاء وصف المؤمنين بالتوكل من خلال جملة اسمية لتدل على استقرار هذه الصفة عندهم وديمومتها ورسوخها ، فلا غنى للمؤمن عن التوكل على الله في أحواله عموماً وفي بذله وعطائه للدين خصوصاً . قال العلامة ابن عاشور: " وجعلت فعلاً مضارعاً للدلالة على تكرر ذلك منهم" [1] .

قال ابن عطية رحمه الله : " وهذه أوصاف جميلة وصف الله بها فضلاء المؤمنين فجعلها غاية للأمة يستبق إليها الأفاضل " [2] ، وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، أمؤمن أنت؟ فقال له: الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله تبارك وتعالى:" إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم"- إلى قوله-" أولئك هم المؤمنون حقا" فوالله ما أدري أنا منهم أم لا. [3] إن" ترتيب هذه المقامات أحسن ترتيب فبدأ بمقام الخوف إما خوف الإجلال والهيبة وإما خوف العقاب، ثم ثانيا بالإيمان بالتكاليف الواردة، ثم ثالثا بالتفويض إلى الله والانقطاع إليه ورخص ما سواه. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون الأحسن أن يكون الذين صفة للذين السابقة حتى تدخل في حيز الجزئية فيكون ذلك إخبارا عن المؤمنين بثلاث الصفة القلبية وعنهم بالصفة البدنية والصفة المالية " [4]

- ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [5].

---

(١) التحرير والتنوير ، للطاهر ابن عاشور ٢٥٩/٩ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٥٠١).

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٣٦٧) .

(٤) البحر المحيط في التفسير (٥/ ٢٧١)

(٥) سورة الأنفال آية (٤٢) .

ففي هذه الآية يبين الله تعالى أنه جعل هذا الالتقاء على تلك الحال ليقضي الله أمراً قدّره بحكمته ، وقضى أنه سيكون ، ولو لم يكن هذا في ترتيب البشر وحسبانهم ، وأنه تعالى سميعٌ عليمٌ بهم قريبٌ منهم.

إن هذا سوف يحقق في قلوب المؤمنين مزيداً من التوكل على الله تعالى ، إذ هو سبحانه يقدر الأمور بحكمته ليقضي أمراً أراده وشأناً قدره ، فلتكن الوجهة إذاً له فإنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم ؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته، وتكامل عدّته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين والتياث أمرهم وأنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله سبحانه، ودليلا على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوّته وباهر قدرته" [1]

وقال ابن كثير : " إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهرا، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة " [2]

- ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

فكلما استمسكتم بأمر ربكم – ومن أعظمه الصبر والثبات – فإن الله سيكون معكم ، بعونه ونصره وتثبيته وحفظه ورعايته ، وهو سبحانه يحب الصبر وعباده الصابرين ، ويوفي الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال النعماني : " والمقصودُ أنَّ كمال أمر الجهادِ مبنيٌّ على الصَّبْرِ فأمرهم بالصبر" [4].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٢٢٣) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٦) .

(٤) اللباب في علوم الكتاب (٩/ ٥٣٥)

- ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾[1]

فإن من فوض أمره إلى الله ، فإن الله تعالى أهل لهذا التوكل سبحانه .

قال الآلوسي : "إن الله عزيز غالب لا يذل من توكل عليه ولا يخذل من استجار به وإن شتئ فقل حكيم يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول، وتحار في فهمه ألباب الفحول" [2] .

وقال الزمخشري : " ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى" [3].

- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[4] .

حتى عند الرخاء والسلم ، فالتوكل حاضر لا يغيب . إن المؤمن ليدرك أنه بتوكله على الله ينال من ربه التوفيق لما هو خير له ، ويطمئن للعاقبة والمآل حينما تكون خيرة الله ، فلا يعتريه القلق ولا الحيرة ، حتى وهو يختار السلم والمصالحة ، فلا يخشى أن يكون في ذلك ضعف أو وهن أو انكسار .

قال ابن كثير: " {وتوكل على الله} أي: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا، {فإن حسبك الله} أي: كافيك وحده" [5].

- ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾[1]

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٩) .

(٢) روح المعاني (٥/ ٢١٣)

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٢٢٨)

(٤) سورة الأنفال آية (٦١) .

(٥) تفسير ابن كثير (٤/ ٨٤)

وكذلك عند الشدة التوكل حاضر بطبيعة الحال ، فالآية هنا تحكي موطناً من المواطن التي تقلق فيها النفوس ، حيث يشتد مكر الأعداء ، وهم يعملون على إيقاع الخديعة بالمؤمنين ، فيأتي التذكير والتطمين والتقرير لمعية الله ، ، فهو يكفيهم ويمدهم بقوته إنهم توكلوا عليه حقاً ولم يركنوا إلى الأسباب المجردة .

قال الآلوسي : " وإن يريدوا أن يخدعوك بإظهار السلم فإن حسبك الله أي محسبك الله وكافيك وناصرك عليهم" [٢]. وقال ابن عطية : " فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ أي كافيك ومعطيك نصرة وإظهارا، وهذا وعد محض" [٣].

- ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾[٤]

فيكفي المؤمن العامل لدينه ، الثابت على منهاج الحق والهدى ، بأن الله تعالى معه ، حسبه ذلك ليكل أمره لله ، ويدرك أنه يملك من القوة مالا يملكه بشر كائناً من يكون .

قال القرطبي : " أراد التعميم، أي حسبك الله في كل حال" [٥]. وقال الآلوسي : " يا أيها النبي شروع في بيان كفايته تعالى إياه عليه الصلاة والسلام في جميع أموره وحده أو مع أمور المؤمنين أو في الأمور المتعلقة بالكفار كافة إثر بيان الكفاية في مادة خاصة وتصدير الجملة بحرفي النداء والتنبيه للنداء والتنبيه على الاعتناء بمضمونها، وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة للاشعار بعلية الحكم كأنه قيل: يا أيها النبي حسبك الله أي كافيك في جميع أمورك أو فيما بينك وبين الكفرة من الحرب لنبوتك" [٦].

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٢) .

(٢) روح المعاني (٥/ ٢٢٣) .

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٥٤٨).

(٤) سورة الأنفال آية (٦٤) .

(٥) تفسير القرطبي (٨/ ٤٢) .

(٦) روح المعاني (٥/ ٢٢٦).

- **النداء بالإيمان ، وتعزيز ارتباط ما يؤمرون به من أفعال وأقوال بصفة الإيمان**

هذا معلم آخر من معالم إعجاز القرآن في ترسيخ الأصول والكليات من خلال آيات هذه السورة الكريمة . فالنداء بالإيمان ، وربط كثير مما يحثون عليه بصفة المؤمنين التي يحبها الله منهم ، والتأكيد على أمور لا غنى عنها لأنها من لوازم الإيمان .

لقد جاء في السورة ستة نداءات للمؤمنين ، تخاطبهم بأكرم صفة لهم وتهيئ نفوسهم لتلقي ما حوته من استحثاث وتوجيه ، أو تحذير وتنبيه ولنتأمل هذه النداءات وما جاء في ثناياها مما يتناسب مع ندائهم بصفة الإيمان التي باتت شعارهم الذي لا يعلوه شعار :

- ١- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١)

- ٢- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢)

- ٣- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٣)

- ٤- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأنفال آية (١٥ - ١٦) .

(٢) سورة الأنفال آية (٢٠ - ٢١) .

(٣) سورة الأنفال آية (٢٤) .

(٤) سورة الأنفال آية (٢٧ - ٢٨) .

- ٥- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)

- ٦- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢)

لقد حوت هذه النداءات جملة من التوجيهات العظيمة ، والتي يطول المقام بالوقوف معها وتناول دلالاتها ، وإنما شاهدنا هنا كيف هو الإعجاز القرآني في استعمال النداء الإيماني ومن ورائه مباشرة التوجيه المطلوب ، فتتلقفه النفوس المؤمنة بهيبة وإجلال ومحبة ، حيث هي تحنّ لهذا النداء ، كلّما وجدته في كلام الله يطرق أسماعها ، فلا تملك إلا أن تستجيب وتنقاد ، لأنها اختارت لنفسها هذه الصفة ، وأرادت أن تنال من حقائقها أكبر القدر وأوفر النصيب.

كما إن السورة الكريمة ، تذكّر المؤمنين ببعض لوازم الإيمان، في سياق المعالجة لبعض الآفات ، أو التدارك لهفوة أو تقصير أو خلل ، فماذا تكون النتيجة ؟

إن المؤمن سرعان ما سوف يبادر إلى العمل الذي جعله القرآن الكريم لازماً للإيمان ، كما إنه سينفر من هذا التقصير أو الخلل الذي وقع فيه ، حينما يجد هذا التقصير والخلل يتنافى مع حقيقة الإيمان الذي عظم شأنه في نفسه فلا شيء عنده أعظم منه . وفيما يلي شواهد لذلك من السورة الكريمة :

- ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأنفال آية (٢٩) .

(٢) سورة الأنفال آية (٤٥ - ٤٦) .

(٣) سورة الأنفال آية (١) .

(٤) سورة الأنفال آية (٢ - ٤) .

- **تأسيس أصل التسليم لله ورسوله والانقياد الكامل لحكمهما**

حينما وقع السؤال من المؤمنين عن الغنائم في بدر [1] ، وقبل أن يسمعوا من القرآن المنزّل عليهم إجابة هم بحاجة إليها ليزول ما في نفوسهم ، يفتتح القرآن العظيم نزوله بإيراد السؤال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ﴾[2] ، ثم لا يأتي الجواب ، وإنما تقرير الأصل الذي يجب ألا يغيب عنهم ، وأن تتشربه قلوبهم مهما كان الحال ، وأن تتوطن نفوسهم عليه أياً كان الجواب . إنه التسليم المطلق لله ورسوله ﷺ ، والانقياد الكامل لحكمهما ﴿ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[3].

هنا يتجلى إعجاز القرآن في توجيهه وتربيته ، فرغم أن الموطن يتسم بالشدة ، والبلاء كان عظيماً ، والنفوس المؤمنة قدمت الكثير : فالمهاجرون إنما غنموا أموالهم التي حُرموها بعد هجرتهم ، والأنصار أبلوا في قتالهم رغم أن بيعتهم كانت تنصّ على النصرة والحماية في داخل المدينة ، رغم كل هذا : تنزل الآيات - بأسلوبها الحاسم - لكي تربي هذه النفوس على القيمة الكبرى قبل كل شيء .

وبعد تقرير هذا التسليم ، وبعد آيات متتابعات تتأكد فيها المعاني الكبرى والسنن الربانية ، يأتي الجواب التفصيلي في الآية الحادية والأربعين من السورة: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

---

(١) عن عبادة بن الصامت أنه سئل عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل يوم بدر فانتزعه الله من أيدينا حين ساءت فيه أخلاقنا فرده على رسوله فقسمه بيننا على بواء يقول على السواء.

وروى أبو داود عن ابن عباس قال " لما كان يوم بدر ذهب الشبان للقتال وجلس الشيوخ تحت الرايات فلما كانت الغنيمة جاء الشبان يطلبون نفلهم فقال الشيوخ لا تستأثرون علينا فإنا كنا تحت الرايات ولو انهزمتم لكنا ردءا لكم واختصموا إلى النبي صلى الله عليه و سلم فأنزل الله تعالى . (التحرير والتنوير ٩ / ٢٤٨)

(٢) سورة الأنفال آية (١) .

(٣) سورة الأنفال آية (١) .

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] ، لتكون هذه الإجابة مصطبغة بذلك الأصل الراسخ في القلوب واليقظ في النفوس .

ثانياً :تقرير السنن الربانية في عوامل حصول النصر أو انحباسه عنهم

حينما نزلت سورة الأنفال ، وتقرر فيها إرادة الله تعالى لأن تكون هذه الأحداث لحكمة مقدّرة ، جاءت الآيات الكريمة من هذه السورة تجلي للمؤمنين - وهم يعيشون أجواء النصر — كيف صار هذا ؟ وما هي السنن التي تحكم -بإرادة الله- في مثل هذه الأحوال ؟ ، ليكون الدرس عملياً عميقاً وليعرف هؤلاء وسائر المؤمنين الذين يقرأون القرآن ماهي سنن النصر وأسباب الهزيمة ، مع الصورة التطبيقية التي تزامنت معها هذه الآيات — أي أحداث الغزوة — وجعلتها النموذج الواقعي الذي تتأكد من خلاله واقعية هذه السنن وحتميتها بإذن الله وحكمته .

" ألا إن غزوة بدر - بملابساتها هذه - لتمضي مثلا في التاريخ البشري . ألا وإنها لتقرر دستور النصر والهزيمة ؛ وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة . . الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية . . ألا وإنها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل زمان وفي كل مكان ، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها . فهي آية من آيات الله ، وسنة من سننه الجارية في خلقه ، ما دامت السماوات والأرض " [2] .

باستعراضنا للآيات الكريمة من هذه السورة ، يمكن لنا أن نتوقف مع عدد من هذه العوامل التي يقررها الله تعالى لعباده المؤمنين :

---

(١) سورة الأنفال آية (٤١) .

(٢) الظلال ١٤٨٢/٣ .

١- ارتباط القلوب الكامل بالله تعالى ، وانخلاعها عن التعلق بكل سبب أو أحد من المخلوقين ، والثقة بأن النصر من عنده وحده دون سواه .

هاهي الآيات تحكي كيف وقع النصر ، لقد خرج المسلمون لغير القتال فلم يكن عدد ولا عدة ، فهيأ الله من عنده أسباباً متتالية ، جعلها استجابة لاستغاثتهم له ، قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (١) (٢) ، فكانت الاستجابة هنا رديفاً سريعاً لاستغاثتهم ولجوئهم إليه .

قال ابن عاشور : " وفائدة التبشير بإمداد الملائكة أن يوم بدر كان في أول يوم لقي فيه المسلمون عدوا قويا وجيشا عديدا، فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة، لأن النفوس أميل إلى المحسوسات، فالنصر معنى من المعاني يدق إدراكه وسكون النفس لتصوره بخلاف الصور المحسوسة من تصوير مدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم" (٣) .

ثم تأتي الآية الكريمة لتؤكد للمسلمين بأنه لا نصر لهم إلا من عند الله ، وأن جميع الأسباب لن تجدي شيئاً بدون أن يهب الله نصره حتى تلك الأسباب المعجزة العظيمة التي أكرم الله بها عباده في بدر : من نزول الملائكة المقاتلة ، والمطر ، والنعاس ، والسكينة ، وغيرها ، حتى هذه ما جعلها الله إلا تبشيراً للمؤمنين

---

(١) سورة الأنفال آية (٩) .

(٢) أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي (٢) صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، بهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: " اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا"، قال: فما زال يستغيث ربه (عز وجل) ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال : يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل: { إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم .. } الآيات .

(٣) التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٦) .

وتطميناً لهم ، أما حصول النصر فما هو إلا بأمر الله وإذنه . قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

لقد كتب الله تعالى هذه الأحداث ، وأنزل في أجوائها هذه الآيات لكي يوقن المؤمنون بأن " النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزاد .. إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد . وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي . ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله؛ ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من القلة ويكن عدوها من الكثرة؛ ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد " (٢) .

وقال ابن عاشور : "تقديم المجرور هنا في قوله: به قلوبكم وهو يفيد الاختصاص، فيكون المعنى: ولتطمئن به قلوبكم لا بغيره، وفي هذا الاختصاص تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطائفة ذات الشوكة وقناعتهم بغنم العروض التي كانت مع العير، فعرض لهم

بأنهم لم يتفهموا مراد الرسول صلى الله عليه وسلم، حين استشارهم، وأخبرهم بأن العير سلكت طريق الساحل فكان ذلك كافيا في أن يعلموا أن الطائفة الموعود بها تمحضت أنها طائفة النفير، وكان الشأن أن يظنوا بوعد الله أكمل الأحوال، فلما أراد الله تسكين روعهم، وعدهم بنصرة الملائكة علما بأنه لا يطمئن قلوبهم إلا ذلك، وجعل الفخر: التقديم هنا لمجرد الاهتمام بذلك الوعد" (٣) .

وقال محمد رشيد رضا : " ثم بين تعالى أن هذا الإمداد أمر روحاني يؤثر في القلوب فيزيد في قوتها المعنوية فقال: وما جعله الله إلا بشرى أي: وما جعل عز شأنه هذا الإمداد إلا بشرى لكم بأنه ينصركم كما

---

(١) سورة الأنفال آية (١٠) .

(٢) الظلال ٣/ ١٤٨١ .

(٣)التحرير والتنوير (٩/ ٢٧٧) .

وعدكم ولتطمئن به قلوبكم أي: تسكن بعد ذلك الزلزال والخوف الذي عرض لكم في جملتكم من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان. فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر، وسيأتي في مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا وما النصر إلا من عند الله دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية، فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية، إذ هو المسخر لها، وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان إن الله عزيز حكيم عزيز غالب على أمره، حكيم لا يضع شيئا في غير موضعه" [1].

وقال السعدي : "{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ} أي: إنزال الملائكة {إلا بُشْرَى} أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ} وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عَدَدٍ ولا عُدَدٍ.. {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. {حَكِيمٌ} حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها" [2].

٢- طاعة الله ورسوله عموماً ، والتآلف وترك التنازع والشقاق ، يدل عليهما قول الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [3] .

فالعامل الأول عام يعني حرص المؤمن على الطاعة والامتثال والاستقامة ، والثاني يُخصّ من الأول بصورة من صور هذه الطاعة التي تتأكد في هذا الميدان من وجوب التآلف وترك النزاع والشقائق الذي يورث الفشل . إنّ المقصود هنا في التنازع هو الاختلاف المبني على الهوى وحب الظهور والاعتداد بالرأي والتعصب له، مما يورث الشقاق وتنافر القلوب والفشل [4].

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥٠٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣١٦) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٦) .

(٤) تفسير سورة الأنفال لمحمد أبوفارس ، ص ١٠٥ .

وقال محمد رشيد رضا : " فاتقاء الفشل والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها، وإتقان آلاتها وأسلحتها التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيبا، وهو المشار إليه بقوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) (٨: ٦٠) كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده (ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)" [١] .

وقال السعدي : "{وَلا تَنَازَعُوا} تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، {فَتَفْشَلُوا} أي: تجبنوا {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله. {وَاصْبِرُوا} نفوسكم على طاعة الله {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له" [٢] .

٤- الصبر والثبات ، فهما سبب عظيم في معية الله ونصره وتأييده للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٣] . وقال سبحانه آمراً عباده : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٤] .

وقال محمد رشيد رضا : " هو النداء الإلهي السادس للمؤمنين في هذه السورة، وهو في إرشادهم إلى القوة المعنوية للمقاتلين التي هي السبب الغالب للنصر والظفر، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت هي السبب الأخير للنصر والغلب بين الأفراد أو الجيوش " [٥] .

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٠٦) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٢٣).

(٣) سورة الأنفال آية (٤٦) .

(٤) سورة الأنفال آية (٤٥) .

(٥) تفسير المنار (١٠/ ٢٠) .

٥- بذل الوسع في إعداد العدّة . فهو أمر من الله تعالى لعباده يجب عليهم أن يمتثلوه ، وإلا حرموا نصر الله لأنهم ما فعلوا ما أمرهم الله به ، فيعتنون أشد العناية ببذل كافة الأسباب الممكنة لأجل أن يرى الله من أنفسهم صدقاً وبذلاً واستجابة لتوجيهه وتعظيماً لأمره ، فيكتب لهم – سبحانه – نصره وتأييده .

لقد أمر الله تعالى المؤمنين في هذه السورة بأن يُعدّوا ، والأمر يقتضي الوجوب . قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [1] ، فإن هم توانوا عن هذا الإعداد الواجب ، ولم يبذلوا غاية وسعهم فيه ، كانوا مفرطين لأمر الله تعالى وحرموا – تبعاً لذلك – النصر من عند الله تعالى .

أما إذا بذلوا ما يستطيعون – ولو كان هذا المستطاع ضئيلاً ومحدوداً – استحقوا النصر من عند الله لأنهم امتثلوا أمره لا لأنهم بذلوا سبباً مادياً مجرداً .

هذا المعنى العظيم أصل في باب عوامل النصر ، يخسر المسلمون اليوم كثيراً حينما يغيب عنهم ، فهم إمّا متخاذلون في إعداد العدّة فلا يمكن أن ينالوا نصراً بتخاذلهم هذا ، وإما أن يركنوا إلى هذا الإعداد ويظنوا أن ما بينوه لأنفسهم من قوة وعدد وعتاد وغيره سوف يحقق لهم النصر ، وهذا أيضاً يحرمهم نصر الله تعالى . إلا أن يجتهدوا في الإعداد ، امتثالاً لأمر الله لهم ، وقلوبهم متعلقة بمن بيده النصر كله ، حينذاك : يكتب الله نصره في الوقت الذي يقدّره بحكمته سبحانه ، وهو نصر حتمي آت لعباده المحسنين لا محالة .

وهنا يرد السؤال : ما هو هذا الإعداد المأمور به ؟

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠) .

قال محمد رشيد رضا – في كلام قيّم – : "أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب (التي علموا أن لا مندوحة عنها لدفع العدوان والشر، ولحفظ الأنفس ورعايته الحق والعدل والفضيلة) بأمرين: (أحدهما) إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة. (وثانيهما) مرابطة فرسانهم في ثغور بلادهم وحدودها" [1] .

ويقول السعدي: " ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾[2] أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ، ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي ، والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير" ثم يقول : " ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾[3] : وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء ، والحكم يدور مع علته . فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها ، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب " [4] .

---

(١) تفسير المنار (١٠/ ٥٣) .

(٢) سورة الأنفال آية (٦٠) .

(٣) سورة الأنفال آية (٦٠) .

(٤) تفسير السعدي ٢ / ٢١٢ .

- كما إن آيات هذه السورة قررت سبباً مهما من أسباب الهزيمة ، ألا وهو الوقوع في المعصية ، حيث يقول تعالى : ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١)

(١) سورة الأنفال آية (٥٢ - ٥٣) .

الفصل الثاني :

معالم الإعجاز في غرس القيم العليا وحمل هم الرسالة

توطئة :

يعمل القرآن الكريم على تربية المؤمنين على القيم العليا ، والمبادئ السامية، ليكونوا على المستوى اللائق بهم ، ولتتجسد في أشخاصهم معاني الإسلام الكبرى .

حينما تتعرض النفوس والقلوب لآيات القرآن الكريم ، يحصل فيها ارتفاع كبير في مستوى القيم والمثل والمبادئ ، وهذه صورة إعجازية يتميز بها القرآن الكريم عن غيره ، إذ هو يبني قيماً عالية ، تتكون من مجموعها نفوس كريمة ، وشخصيات عظيمة ، تليق بأتباع ملة الإسلام وحملة رسالته الخالدة .

أولاً :التربية على القوة والعزة والعلو

من هذه القيم العظيمة ، ما نراه في آيات هذه السورة ، مما تحرص على بنائه وترسيخه ، من معاني القوة والعزة والاستعلاء ، وهي قيم يجب أن تتميز بها كل شخصية تحمل الرسالة ، وتتحرك لتبديد الظلام بنور الإسلام .

إننا يمكن أن نلمس التربية على القوة والعزة والعلو في جملة من المواطن من هذه السورة ، من أبرزها ما يلي :

- ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[1]

أي : إذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فرأيت منهم ما يدل على على عدم صدق وفائهم ، وإرادة الغدر منهم ، فانبذ إليهم عهدهم وردّه عليهم ، حيث الضرر يحصل للمسلمين من هذا العهد أكثر من الفائدة منه ، بينما هم يستفيدون منه ويستغلونه لصالحهم حتى يحين وقت الغدر منهم . وأعلن ذلك حتى يستوي علمك وعلمهم به حتى لا يكون غدراً ، فإن الله تعالى لا يحب الخيانة ولا يرضاها من الناس [2] .

ففي هذه الآية تربية للمؤمنين على ألا يضعفوا أمام عدوّهم لمجرد شعورهم بأنهم يريدون خيانة ، فكيف إذا خانوا . على المؤمنين أن يكونوا أقوياء في العمل على حماية مصالح أمتّهم ، ورد كيد عدوّهم وتفويت الفرصة عليه في استغلال أجواء السلم والمصالحة بينه وبين المسلمين في غير الإطار الذي أجراه المسلمون لمصلحة يرجونها ووقع العهد عليه .

وكم تحتاج الأمّة اليوم لأن تتأمل في مثل هذا التوجيه القرآني الكريم ، الذي يمتلئ بروح القوة والعزة والإباء ، ولا يرضى للمؤمنين أن يكونوا ضعفاء أمام كيد أعدائهم الكافرين .

- ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [3]

أي أنكم ضعفهم ، وقبل ذلك كانوا عشرة أضعافهم ، قبل أن يراعي الله ما فيهم من الضعف البشري .

---

(١) سورة الأنفال آية (٥٨) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ١٠ / ٥١ ، والسعدي ٢/ ٢١١

(٣) سورة الأنفال آية (٦٦) .

إن هذه الآية لتوحي للمؤمنين بأنّهم ليسوا في الميزان كغيرهم من الناس ، بل إنهم بإيمانهم وهداية قلوبهم ومعية الله لهم تتضاعف قوتهم . ولذا فهذه الآية تخبرهم بأنهم في ميزان الله – رغم تقدير ضعفهم – الواحد منهم باثنين والمائة بمائتين والألف بألفين ، وهكذا .

إن هذه الحقيقة القرآنية ، سوف تعمّق في نفوس المؤمنين استعلاءهم بإيمانهم الذين رفع من قوتّهم ، وتزيد من رصيد ثقتهم بقدرتهم ، وتعزز إدراكهم بأنهم الأعز والأقوى من عدوّهم الكافرين .

– ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [1]

هذه الآية لها سبب نزول ، وهو أن المسلمين لما أسروا الأسارى يوم بدر وفيهم صناديد المشركين ، سأل المشركون رسول الله ﷺ أن يفاديهم بالمال ، وعاهدوا على أن لا يعودوا إلى حربه فقال رسول الله ﷺ للمسلمين : " ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ " قال أبو بكر ﷺ : يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام . وقال عمر ﷺ : أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها . فمال رسول الله لما قال أبو بكر فأخذ منهم الفداء. ثم نزلت الآية معاتبة لرسول الله والمؤمنين [2] .

إن هذا العتاب القرآني جدير بالتأمل الطويل ، فما قصده النبي ﷺ والصديق كان وجيهاً ، مما يعني أن الآية تلفت إلى مصلحة أعظم بكثير مما سيحصل من الفداء ، ولنرجع إلى مفهوم الآية : إنها توجه ألا يكون فداء قبل الإثخان في الأرض ، أي حصول التقتيل في صفوف المشركين تقوى شوكة المسلمين وتضعف شوكة الكافرين .

---

(١) سورة الأنفال ، آية (٦٧) .

(٢) روى ذلك مسلم عن ابن عباس ﷺ ، برقم ١٧٦٣ .

" لقد كانت غزوة بدر هي المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين . وكان المسلمون ما يزالون قلة والمشركون ما يزالون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذل كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين . وكان هذا هدفا كبيرا لا يعدله المال الذي يأخذونه مهما يكونوا فقراء . وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره في النفوس وتثبيته في القلوب ، ذلك هو المعنى الكبير الذي عبر عنه عمر رضي الله عنه في صرامة ونصاعة وهو يقول : « وحتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين » . لهذين السببين البارزين نحسب – والله أعلم – أن الله – سبحانه – كره للمسلمين أن يأخذوا الأسرى يوم بدر وأن يفادوهم بمال " [1] .

أحسب أن في هذا شاهد ناصع لتربية القرآن العظيمة للمؤمنين على معاني العزة والقوة والاستعلاء .

ثانياً :التربية على العدل والوفاء والحكمة

هذا هو الجانب الثاني من القيم التي برزت تربية القرآن الكريم للمؤمنين عليها من خلال هذه السورة . وهي التي لا غنى هنا – أيضاً – للمؤمنين عموماً ، والعاملين على نصرته خصوصاً .

من شواهد تحقيق هذه التربية في آيات السورة المواطن التالية :

– ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [2]

سبقت الإشارة للآية في الفقرة السابقة . وتركيزنا على الشاهد هنا : أي وجوب النبذ إلى الكافرين عهدهم ، وإعلان المسلمين لردّه عليهم . فإن هذا من تمام العدل والوفاء مع قوم قام الميثاق والعهد معهم ،

(١) الظلال ٣/ ١٥٥٢ .

(٢) سورة الأنفال آية (٥٨) .

بالرغم من ظهور علامات الغدر ودلائل إرادة الخيانة ، إلا إنه لا بد من النبذ إليهم طالما أنه لم تقع عين الخيانة بعد من الكافرين .

" إن الإسلام يعاهد ليصون عهده ، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية ، ولم يخن ولم يغدر ، ولم يغش ولم يخدع ، وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة. إن الإسلام يكره الخيانة ، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود ، ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة . إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة ، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة ، وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية ، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية. ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق " [1] .

- ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [2]

هذه الآية توقظ في حس المؤمنين النظرة المتوازنة ، والحرص على تحقيق أعلى المصالح ودفع أعلى المفاسد ، فليست المواجهة من الكافرين هي الخيار الأمثل دائماً ، بل قد يكون السلم هو الأصلح للمسلمين في ظروف تقتضي منهم حسن التقدير وسياسة الأمور . إن هذه الآية الكريمة ، تلفت الانتباه بأن للسلم منافع ومصالح ، وهو جدير بأن يجنح المؤمنون له في توقيته الصحيح وظروفه المناسبة .

قال السعدي عن توجيه الآية للسلم : " فإن في ذلك فوائد كثيرة ، منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم. ومنها: أن في ذلك إجماما لقواكم، واستعدادا منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

---

(١) الظلال ٣/ ١٥٤٢ .

(٢) سورة الأنفال آية (٦١) .

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضا، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له. فصار هذا السلم عونا للمسلمين على الكافرين" [1] .

- ﴿ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [2] .

ودلالة الآية هنا واضحة لا تحتاج كثير بيان ، فرغم واجب نصرة المؤمنين لإخوانهم المستنجدين بهم ، إلا إن ذلك لا يعني كسر الميثاق الذي ارتبط به المؤمنون مع القوم ، وفي هذا تربية قرآنية لنفوس المؤمنين في تعظيم رعاية الميثاق والوفاء به والعدل في إعطاء حقوق الجميع حتى ولو كانوا كافرين .

ثالثاً : التربية على الأخوة والتراحم

وهي قيمة عظيمة الوقع في داخل المجتمع المؤمن ، بالغة الأثر في قوتهم ومنعتهم ، ووحدة صفهم أمام عدوّهم ، وبركة بذلهم في نصرة الدين .

ولنتلمس إعجاز توجيه القرآن الكريم لهذه القيمة الأخلاقية ، في المواطن التالية :

- ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [3]

---

(١) تفسير السعدي ٢ / ٢١٣ .

(٢) سورة الأنفال آية (٧٢) .

(٣) سورة الأنفال آية (٦٣) .

لقد أبرزت الآيات قيمة هذا التآلف ، وأنه أساس في المجتمع المسلم ، وهو مالا يقدر على تحقيقه سوى شريعة الإسلام وهدي القرآن ومشيئة الرحمن، سبحانه وتعالى .

إنها توجيه مباشر لكل المؤمنين بأنه يجب عليهم أن تتآلف قلوبهم ، وأن تتجاوز أسباب التنافر كلها ، ولقد ألف الله بين قلوب الصحابة " فاجتمعوا وائتلفوا ، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم " [1] .

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [2]

إن هذه الآية العظيمة تقرر – بعبارة حاسمة – حقيقة الرابطة التي يعتبرها الإسلام بين أفراده ، ويهدر ما سواها ويهدم قلاعها . فالإيمان بلوازمه من الهجرة والجهاد والنصرة للدين هو الذي يجعل المرء أخاً للمؤمنين أيا كان لونه أو جنسه أو عرقه . وإنه لمعنى عظيم القدر ، نجح القرآن الكريم على تربية النفوس عليه ، رغم تجذّر العصبيات في المجتمع العرب الجاهلي . لقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، حتى صار كل منهم أحق بالآخر من كل أحد؛ كل اثنين أخوان إلى درجة أنهم كانوا يتوارثون بذلك إرثا مقدما على القرابة، حتى نسخ الله التوارث بيهم [3] ، وبقي معلم الأخوة راسخاً متيناً بين المؤمنين إلى يوم الدين .

- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ ﴾ [4]

وتكمل هذه الآية الكريمة ترسيخ تلك القيمة الأخلاقية الراقية ، وتجلّي بعبارتها الوجيزة بأن كل من يستجيب ويلحق ، فإنه ينال شرف هذه الرابطة بدون شرط ولا قيد ولا تمييز . ليكون هذا المبدأ متاحاً لكل إنسان على وجه الأرض ، ما إن يعلن إيمانه حتى يكون معهم ، وينصهر في لحمتهم ، له ما لهم وعليه ما عليهم .

---

(١) تفسير السعدي ٢ / ٢١٤ .

(٢) سورة الأنفال آية (٧٢) .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٢/ ٣١٤ .

(٤) سورة الأنفال آية (٧٥) .

رابعاً : تنمية الشعور بالمسؤولية تجاه نصرة الدين

ذلك هو المعلم الأخير الذي نشير إليه في القيم التي عملت الآيات هنا على غرسها – في النفوس وتربية المؤمنين عليها ، في ظل توجيه رباني معجز .

ولا ريب بأن الشعور بالمسؤولية تجاه الدين ونصرته في قلب المؤمن ، هو المفتاح ليبذل النفس والنفيس في سبيل الله ونصرة دينه . **نقف هنا مع شاهدين من السورة الكريمة ، ليبرز لنا كيف هو الإعجاز القرآني في غرس هذا الشعور وتعزيزه عند المؤمنين :**

– ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (١)

سبق إيراد هذه الآية في معرض الحديث عن وجوب الإعداد المستطاع ليكون النصر من عند الله .

أما هنا فنقف مع هذه الآية الكريمة من ملحظ إشعارها للمؤمنين بأمور في غاية الأهمية :

١ – أمرهم بأن يعملوا ، وأن يعدّوا ، والأمر يقتضي الوجوب ، والتراخي عنه وإهماله يعني التفريط والعصيان .

إن هذه الآية تنبه المؤمنين جميعاً بالفرض الكفائي الملقى عليهم ، بأن يعلموا لدينهم ، وأن يعدّوا لنصرته ، وألا تشغلهم أنفسهم أو دنياهم عن ذلك فيكونوا من المفرطين

٢ – أن هذا الإعداد يجب أن يكون بغاية المستطاع ، وفي هذا إعذار وتكليف ، فأما الإعذار فهو بأنهم ليس مطلوباً منهم أكثر مما يطيقون ، وأما التكليف فهو بأنه يجب عليهم أن يبذلوا غاية وسعهم ، وأن يستنفروا فكرهم وجهدهم ، وأن يستقصوا سائر الأسباب والعوامل المتاحة لهم ، وإلا كانوا مقصرين عن أداء ماهو ممكن ومستطاع .

---

(١) سورة الأنفال آية (٦٠) .

٣- أن المقصود هنا ليس فقط العدو الظاهر المتهيئ للمواجهة ، وإنما لا بد من الإعداد طويل المدى للعدو الحاضر ، والعدو الذي من ورائه ، وللمنافقين الذين لا يعرفهم المؤمنون ، ولكن الله يعرفهم ، ويوقع في قلوبهم الرهبة والخوف حينما يكون المسلمون أقوياء .

٤- أن هذا الإعداد ليس مقتصراً على الإعداد القتالي ، وإنما هو شامل لكل ما من شأنه أن تكون الأمة المسلمة على مستوى التحدي والمواجهة ، وعلى قدر الدور الذي يجب أن تضطلع به من قيادة البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور . من الحضارة العلمية والتقنية ، ومن القوة السياسية والاقتصادية ، ومن الحضور العالمي ، والتميز الأخلاقي ، وغير ذلك مما يؤهلها لدورها ، ويبرزها للعالم خير أمة أخرجت للناس .

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [١] .

إن في هذه الآية توجيهاً ربانياً بتهيئة النفوس على البذل والفداء بأبلغ صوره وأشرف مقاماته ، وما دونه داخل فيه تبعاً . يقول السعدي : " أي : حثهم وأنهضهم إليه بكل ما يقوي عزائمهم وينشط هممهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير في الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم " [٢] .

(١) سورة الأنفال آية (٦٥) .

(٢) تفسير السعدي ٢ / ٢١٥ .

الفصل الثالث : معالم الإعجاز في طرائق التأثير ووسائل المعالجة

أولاً : أسلوب التربية بالحدث

لقد تميز القرآن الكريم عموماً بأسلوب التربية بالحدث ، والذي هو من أبلغ وسائل التربية والتأثير ، فكتاب الله كان يتنزل على رسوله ﷺ بحسب الوقائع والأحداث ، مقوماً أو معاتباً أو مؤيداً ، فيحصل بذلك أثر عميق في النفوس.

إن " مزية الأحداث عن غيرها من وسائل التربية أنها تحدث في النفس حالة خاصة ، هي أقرب للانصهار . إن الحادثة تثير النفس بكاملها ، وترسل فيها قدراً من حرارة التفاعل والانفعال ... وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس ، وليس من اليسير الوصول إليها والنفس في راحتها وأمنها وطمأنينتها مسترخية ، أو منطلقة في تأمل رخي " [1] .

إن الإعجاز القرآني هنا في هذه السورة ، عمل على استثمار هذا الحدث الهائل بكل تفاصيله ، ليصب في هذه النفوس المنصهرة التوجيه المطلوب ، والذي سبق الحديث عنه . ويكفي هنا الإشارة إلى حدث الأنفال وسؤال الصحابة عنها : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ﴾ ، فكانت البداية من قلب الحدث ، ثم تتعاقب الآيات تقدّم التوجيه وترسخ الأصول وتعالج الأخطاء وتقرر السنن ، من خلال هذا الحدث بمختلف ملابساته : ﴿ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [2] الآيات.

---

(١) منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ، ١ / ٢٠٧ .

(٢) سورة الأنفال آية (١) .

ثانياً : مخاطبة الجميع بخطأ البعض

إن المتأمل في جملة من مواطن السورة الكريمة التي اعتنت بتصويب الخطأ ومعالجة القصور ، يجد أن الخطاب فيها للجميع ، لا يقتصر على الفئة المخطئة فلماذا التعبير القرآني هنا يتسم بهذا ؟

إن هذا معلم من معالم الإعجاز في أسلوب توجيهي يحقق معانٍ رائعة .

١- فهو يعمّق الشعور بالترابط بين أفراد هذا المجتمع المؤمن ، وأنهم على ثغر واحد ، وأصحاب هدف يوحدهم ويجمع بينهم .

٢- ويرسخ في أذهانهم مبدأ تأثر الكل بالجزء ، وأن خطأ بعضهم سوف يجنيه الجميع ، فهم يركبون سفينة واحدة ، فإن هم نجوا كانت النجاة للجميع ، وإن أصاب بعضهم من السفينة هلكوا جميعاً .

٣- ويحيي مسؤولية المجموعة تجاه بعضها ، وأن بعضهم أولياء بعض وأن لكل واحد منهم حق التناصح والتواصي على الحق والهدى .

٤- ويغذي عند جميعهم حب الاستزادة من الخير ، وقبول التوجيه والإفادة منه ، ولو كانت النفس غير مخاطبة بالأصالة ، حيث إن المقام هو مقام تربية للجميع بموقف قضاه الله بحكمته ليتعلم منه الجميع ، ويتربى في رحابه كل من يتلقّى عن الله ورسول ﷺ .

ولنتأمل في مطلع السورة الكريمة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١].

---

(١) سورة الأنفال آية (١) .

لقد كان السائلون قلّة من مجموع الفئة المتواجدة في الحدث ، ورغم هذا جاء الوصف يشملهم مجموعهم ، ويتناولهم بالجملة في التوجيه والمخاطبة .

إنه أسلوب راقٍ في تربية النفوس ، يجردها من فرديتها ، وينزع عنها صفة (الأنا) ، ويركّز حرصها على الانتفاع لا على رد التهم والتخلص من التخطئة ، ويجعلها محبة للنقد حريصة على الإفادة منه ولو لم يكن يخاطبها ابتداءً .

- ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [1]

فهذا موطن آخر يتناول نفس الأسلوب ، فيخاطب الجميع ، رغم أنه كان منهم من عارض الفداء للأسري ، كعمر ﷺ .

" إن القرآن لا يخاطب فرداً من المؤمنين بخطيئته أو ضعفه ، لكنه يوجه الخطاب إلى الجماعة كلها ، وهي نظرة في منتهى السمو في الناحية الاجتماعية، تؤكد وحده الجماعة وكتلتها وتماسكها " [2].

(١) سورة الأنفال ، آية (٦٧) .

(٢) من هدي سورة الأنفال ، للدكتور محمد أمين المصري ، ص ٦٢ .

الفصل الرابع : بث الطمأنينة في النفوس والسكينة في القلوب

توطئة :

إن لطمأنينة النفس أثراً كبيراً في قدرة المرء على أن ينجح في عمله وينتج من جراء جهده ، بخلاف المضطرب أو المرتاب أو الخائف أو اليائس أو المحبط . وفي كتاب الله عناية فائقة ببث الطمأنينة في النفوس والسكينة في القلوب .

لقد كان هذا صورة من صور الإعجاز التوجيهي في السورة ، حيث العناية الفائقة في مقام يتطلبه ذلك ويتأكد فيه – فالحدث هو مواجهة حاسمة - كما إنه يتقرر بطرق وأساليب ربانية ، عميقة الأثر في قلوب المؤمنين ونفوسهم .

لقد تجسد هذا المعلم في الآيات الكريمة ، من خلال عدد من الطرائق والأساليب :

أولاً : إشعار المؤمنين بمعية الله لهم ورحمته بهم في أوقات الشدائد فضلاً عن غيرها

إن هذا لكفيل بأن يورث في القلب طمأنينة عالية ، فالله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء مع المؤمنين ، وحسبهم ذلك الشعور العجيب . وكما قال بعض السلف : " من كان مع الله كان الله معه ، ومن كان الله معه فمن الذي ليس معه ! " .

وفي هذا جملة من الآيات في السورة ، توحي بالكثير لكل مؤمن عامل يتطلع إلى معية الله له ، ورحمته به ، في السراء والضراء :

— رعاية الله للمؤمنين في قلب الشدة ، لكي تحصل لهم البشارة والطمأنينة ، والأمنة والثبات ، والثقة بنصر الله لهم : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) . ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (٢) . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٣) .

— معية الله وقربه للمؤمنين في ميدان المعركة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤) بل معيته حتى للملائكة الذين جاءوا بأمره تعالى من السماء لنصرة هؤلاء المؤمنين : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٥) .

— ما يوحيه لفظ الإيواء والتأييد من معاني الحفظ والرعاية والتأييد الرباني، في الوقت الذي يكون المؤمنون فيه بحاجة إلى هذا ، بسبب ضعفهم وقلة حيلتهم : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٦)

— إدراك المؤمنين بأن التدبير كله من عند الله ، وليس عند أحد غيره كائناً من يكون : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأنفال آية (١٠) .

(٢) سورة الأنفال آية (١١) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٠) .

(٤) سورة الأنفال آية (١٩) .

(٥) سورة الأنفال آية (١٢) .

(٦) سورة الأنفال آية (٢٦) .

– رعايته تعالى لمعنويات المؤمنين ، وحفظه لهم من كل صور الرهبة التي قد تنقذف في نفوسهم وتؤدي بهم إلى الضعف أو الفشل : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ (٢)

– التأكيد الجازم للنبي ﷺ وللمؤمنين بأن الله كافيهم من كل أحد سواه فلا بأس عليهم ولا خوف ولا قلق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

ثانياً : تقرير أن ما يريده الله هو خير لهم مما أرادوا لأنفسهم

– ولو ظنوا غير ذلك ، فإن الآيات جاءت لتطمئنهم بأن ما يقدّره الله لهم هو خير لأنفسهم: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٤) .

فهنا تستقر في نفوس المؤمنين بأن الله تعالى معهم ، يختار لهم ما هو خير لأنفسهم ولدعوتهم ، ولو كان ظاهر الأمر غير هذا . فيكلون أمرهم لله ، وينعمون ببرد الطمأنية ، ونعيم الشعور بمعية الله لهم وقربه منهم .

---

(١) سورة الأنفال آية (١٧) .

(٢) سورة الأنفال آية (٤٣ - ٤٤) .

(٣) سورة الأنفال آية (٦٤) .

(٤) سورة الأنفال آية (٧ – ٨) .

ثالثاً : الإغلاظ على الكافرين وبيان عاقبة أمرهم وسوء مآلهم وإحاطة الله بهم ويكرهم مهما عظم واشتد :

ويكفينا هنا أن نسوق الشواهد على هذا من لفظ الآيات الكريمات ، إذ المعنى ظاهر لا يتحاج إلى مزيد بيان :

- ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١)

- ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ * إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

- ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٣)

- ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأنفال آية (١٢ - ١٣) .

(٢) سورة الأنفال آية (١٨ - ١٩) .

(٣) سورة الأنفال آية (٢٢ - ٢٣) .

(٤) سورة الأنفال آية (٣٠) .

- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1] .

- ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[2] .

- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[3]

- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[4]

- ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[5]

- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾[6]

---

(١) سورة الأنفال آية (٣٦ - ٣٧) .

(٢) سورة الأنفال آية (٣٨ - ٤٠) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٧) .

(٤) سورة الأنفال آية (٥٠ - ٥٢) .

(٥) سورة الأنفال آية (٢٢) .

(٦) سورة الأنفال آية (٥٩) .

الفصل الخامس : بلاغة التعبير وتناسب النظم والسياق

توطئة :

لو كان موضوعنا في هذا البحث عن الإعجاز اللغوي في هذه السورة الكريمة ، لفاض بنا الحديث في شتى جوانب هذا الإعجاز . لكننا وفي سياق بيان الإعجاز التوجيهي ، يحسن بنا الإشارة إلى بعض الجوانب اللغوية التي يظهر ترابطها مع جانب التوجيه والتربية ، ويتمثل فيها الدور المساند لهذا التوجيه الرباني .

ولنتأمل هذا من خلال ثلاثة جوانب رئيسة :

أولاً : براعة الاستهلال

إن مطلع السورة الكريمة ، يجعل المتلقي لها يدخل بشكل مباشر في سياق الحدث ، وفي جو القضية الرئيسية ، كما إنه يثير الفضول ، ويشد الانتباه ، من خلال حكاية طرح السؤال ، ثم تعقيبه بما لا يخطر على بال بأن يكون هو ما يجيب عن هذا السؤال . ولنتأمل في بلاغة هذا الابتداء وبراعة استهلال السورة الكريمة : قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [1] . ثم تتابع الآيات بسلاسة وسرعة لتتناول الحدث وتعالج النفوس من خلاله .

---

(١) سورة الأنفال آية (١) .

ثانياً : الترابط اللفظي بين دلالة الآية وما تُختم به

وهذا مطّرد في القرآن العظيم كله ، ومنه هذه السورة الكريمة فالتوجيه الذي تورده الآية يتعمق أثره ، حينما تختم الآية عبارتها بألفاظ تناسب السياق وتختم بتوكيد المعنى وترسيخه في الأسماع والأذهان ، إن الشواهد على ذلك في هذه السورة كثيرة ، وإنما نشير هنا إلى بعض الأمثلة عليها :

- ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١)

- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

- ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣)

- ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأنفال آية (١٠) .

(٢) سورة الأنفال آية (١٣) .

(٣) سورة الأنفال آية (١٧) .

(٤) سورة الأنفال آية (١٩) .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١)

- ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (٢)

- ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣)

- ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٤)

- ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٥)

- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٦)

---

(١) سورة الأنفال آية (٢٩) .

(٢) سورة الأنفال آية (٣٠) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٦) .

(٤) سورة الأنفال آية (٦٠) .

(٥) سورة الأنفال آية (٦٣) .

(٦) سورة الأنفال آية (٧٤) .

ثالثاً : التصوير البليغ للصفات التي يبغضها الله تعالى ولا يرضاها من عباده

إن من الأساليب البليغة التي نلمسها في هذه السورة ، مما يعزز ما جاء في آياتها من توجيه ، هو إيراد الصفات التي يبغضها الله تعالى في صورة تنفر منها النفوس ، وهو ما يدفع النفوس إلى الانخلاع عنها والحذر منها ، والصدود عن أهلها ومقترفيها .

وإنّ من شواهد هذا في هذه السورة ما يلي :

- ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١)

- ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٣)

- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الأنفال آية (٦) .

(٢) سورة الأنفال آية (٢٢ - ٢٣) .

(٣) سورة الأنفال آية (٤٧) .

- ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)

إن ما سبق شواهد وأمثلة على قرآن معجز بليغ ، وتراكيب لفظية بديعة ينسجم فيها السياق ، وتتظافر فيها المعاني ، وتتكامل بين ثناياها العبارات وليس هذا كله بغريب ، فهو كلام الله الذي أذهل الأفحاح ، وتحدى البلغاء وأسال الغيون الجامدة ، وحرك القلوب المتحجرة ، لو نزل على جبل لتصدّع فكيف هو إذ ينسكب على قلوب مؤمنة ، لانت مع الله ، خشعت رجاءً وخشية ، وانكسرت خضوعاً وإنابة ، وأذعنت طاعة وتسليماً ، فيكون لنظم القرآن الكريم أثراً يضاعف ما يصنعه التوجيه القرآني في تلك النفوس ، حينما يصيبها غيث كلام الله الكريم ، فتتشربه أرضها الخصبة ، فتثمر بإذن الله نبات الإيمان الطيب المبارك .

(١) سورة الأنفال آية (٥٠ - ٥١) .

(٢) سورة الأنفال آية (٥٥) .

الخاتمة

بعد أن تم – بفضل الله وتوفيقه – هذا البحث ، يمكننا أن نجمل أبرز النتائج كما يلي :

١- عظم شأن سورة الأنفال في مجال التربية والتوجيه وبناء النفوس التي تحمل رسالة الإسلام وتعمل على تحقيقها .

٢- أن مجال الإعجاز التوجيهي هو من أعظم صور ومحاور الإعجاز القرآني ، وهو جدير بأن يتوقف معه الباحثون ليستلهموا كيف هو القرآن مع تربية النفوس وتوجيهها .

٣- أن السورة اعتنت بتقرير الأصول ، ورسم الكليات والقواعد ، ثم أسست الأحكام الجزئية التفصيلية على هذه الأصول التي ستبقى عند المؤمن منهاجاً يمتثله في سائر ما يتلبس به .

٤- أن من هذه الأصول العظيمة التي اعتنى بها التوجيه القرآني في هذه السورة ، هو تحقيق الربانية في النفوس ، وربط القلوب بالله تعالى ، وتعزيز الإيمان ولوازمه ، وتأسيس أصل التسليم لله ورسوله ﷺ .

٥- قررت السورة الكريمة السنن الربانية في باب الجهاد وتحقيق النصر والتمكين لجند الله المؤمنين .

٦- من معالم الإعجاز التوجيهي في هذه السورة الكريمة : ما عملت عليه من غرس القيم العليا في النفوس ، كقيم القوة والعزة والعلو ، وقيم العدل والوفاء والحكمة ، وقيم الأخوة والتآلف والتراحم ، ليكون المؤمنون رجالاً كباراً ، مؤهلين لحمل الرسالة ، وتمثل عظمة الدين في أشخاصهم .

٧- كما إن من المعالم التي ظهرت في إعجاز التوجيه في السورة ، هو بثها للطمأنينة في نفوس المؤمنين من خلال إشعارهم بمعية الله لهم ورحمته بهم ، وأن ما يريده الله هو الخير لهم مما يريدونه لأنفسهم ، ومن خلال كذلك إغلاظ الله تعالى على الكافرين وبيان عاقبة أمرهم وسوء عاقبتهم .

٨- وأخيراً فإن مما تكامل مع الإعجاز التوجيهي في السورة ، هو ما كان فيها من براعة التعبير وتناسب النظم والسياق ، مما أخرج جوهر التوجيه الكريم في إطار بليغ وبديع .

هذا ، وإن هذا العمل ليعكس قصور كاتبه الذي يسأل الله تعالى ألا يكله إلى نفسه طرفة عين ، فإن كان في هذا الجهد من صواب فهو من فضل الله وكرمه العظيم ، وما كان فيه من خطأ وقصور فمن عندي ، والله المستعان .

اللهم لك الحمد كله ، ولك الشكر كله ، ولك الثناء كله ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثبت المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن : لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤١٩هـ .

٢- إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام ابن تيمية : لمحمد بن عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج – الرياض ، ط١ ، ١٤٢٧هـ .

٣- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية : ليسري السيد محمد ، دار ابن الجوزي – الدمام ، ط١ ، ١٤١٤هـ .

٤- تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن لسيد قطب : لعلوي السقاف ، دار الهجرة – الرياض ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

٥- تفسير التحرير والتنوير : لمحمد الطاهر بن عاشور ، دار سحنون – تونس ، بدون طبعة وتاريخ .

٦- تفسير القرآن العظيم : للحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي ، دار الحديث – القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

٧- تفسير سورة الأنفال : لمحمد عبد القادر أبو فارس ، مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن ، ط١، ١٤٠٦هـ .

٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : لعبدالرحمن بن ناصر السعدي ، دار المدني – جدة ، ط ١٤٠٨هـ .

٩- الجامع لأحكام القرآن :للإمام محمد القرطبي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

١٠- رونق البيان في إعجاز القرآن : لصابر حسن أبو سليمان ، دار الشريف – الرياض ، ط١ ، ١٤١٨هـ .

١١- طريق الدعوة في ظلال القرآن : لأحمد فائز ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط١٣ ، ١٤١٢هـ .

١٢- عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي : لشوقي أبو خليل ، دار الفكر – دمشق – سورية ، تصوير من الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ .

١٣- في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الأنفال المحتوى والبناء : لأحمد مختار البرزة ، دار المأمون للتراث – بيروت ، ط١ ، ١٤٠٨هـ .

١٤- في ظلال القرآن : لسيد قطب ، دار الشروق – بيروت ، ط١٥ ، ١٤٠٨هـ .

١٥- الكليات الشرعية في القرآن الكريم : للحسن حريفي ، دار ابن القيم – الدمام ، دار ابن عفان – القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٣هـ .

١٦- مباحث في علوم القرآن : لمناع القطان ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٢١، ١٤٠٧هـ .

١٧- مفتاح كنوز في ظلال القرآن : لمحمد يوسف عباس ، دار طيبة – الرياض ، ط١ ، ١٤٠٧هـ .

١٨- من هدي سورة الأنفال : لمحمد أمين المصري ، دار الأرقم – الكويت ، بدون طبعة وتاريخ .

١٩- مناهل العرفان في علوم القرآن : لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، دار الفكر – بيروت ، ط ١٤٠٨هـ .

٢٠- المعجم الكبير : للإمام سليمان بن أحمد الطبراني ، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مكتبة العلوم والحكم – الموصل ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ .

٢١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : للحافظ نور الدين علي الهيثمي ، دار الفكر – بيروت ، ط ١٤١٢هـ .

٢٢- صحيح البخاري : لمحمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق مصطفى البغا ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٧هـ .

٢٣- صحيح مسلم : لمسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ،بدون طبعة وتاريخ.